الفصل الثانى عشر

فلسطين فى حكم المماليك

٦١ - المماليك البحرية

المماليك جمع مملوك وهم الجماعة الذين دخلوا خدمة الملوك والأمراء فترقوا من خادم إلى ملك ومن أجير إلى أمير ويرجع أصلهم إلى الأسرة المغولية من سكان أواسط آسيا. فالسلجوقيون والخوارزميون والمماليك والعثمانيون من فصيلة واحدة بعضهم نزح بعياله ومواشيه إلى حدود المملكة العربية خشية بطش جنكيز خان أو غيره وبعضهم كان يجلب ويباع فى العواصم أو يقدم هدايا للملوك والأمراء من كان منهم قويًا ذكيًا كان يقدمه جده ومقدرته فيلبس التاج ويؤسس مجدًا باسقًا ومن كان منهم ضعيفًا عاش خاملاً ومات خادمًا ومن يتصفح تاريخ الحكومات العربية ويستقصى حوادثها يدرك لأول وهلة سرًا خطيرًا وهو أن جميع الدول كانت تستكثر من الخدم (المماليك) وتكرمهم وتقربهم وترقيهم وتمنحهم ألقاب الأمراء وتقطعهم البلاد فيستبدون ويتحكمون ثم يؤسسون حكومات تكون فروعًا للجذع الذى نبتوا عليه فإذا ما عظموا قطعوا عنهُ غذاءه وأصبحوا –وهم العبيد– أصحاب البلاد. وما من دولة إلا ارتكبت هذه الغلطة فانقرضت وتلاشت جميعها على أيدى مماليكها وخدمها ولم تتعظ واحدة منها بالأخرى وليس هذا بعجيب لأننا معاشر الشرقيين بسطاء القلوب مخلصون سمحون متساهلون لا توقظنا عظة الادهار ولا تنبهنا حوادث الاعصار شأننا فى جميع أمورنا وأعمالنا ولو أنا طفنا بيوت الأسر الكبيرة لكشفنا ذلك السر ولاطّلعنا عَلَى أمور توضح لنا أسباب رقى أولئك المماليك ونجاحهم وإليك أيها القارىء الكريم مثالاً:

يأتى السيد العربى بخادم أو خادمة إلى بيته فيجعله فردًا من العائلة ويشركه فى أمره ويدلله ويطلعهُ على أسرار البيت وعورات أهله ودخائله فيعرف فقره

وغناه ومقامه الحقيقى والظاهرى ويتدخل بينهم فيجدهم أحزابًا يستعين به أحدهم عَلَى الآخر ويتقوى بهِ أضعفهم ويستند عليه أعجزهم فيحترم ويكرم ويتنافسون فى استمالتهِ إليهم حتى يصبح مستشارًا لا خادمًا فيخالفهم ويخاشنهم، أما الغربيون فيظل خادمهم خادمًا لا يعرف من أمرهم شيئًا وليس له عليهم من سبيل. وربما طردوه لأقل ذنب اقترفه أو خطأ جناه ولو كان طفيفًا.

تشعبت الدولة الأيوبية وطمع بها كثير وأصبحت البلاد لمن غلب فاستكثر الملك الصالح المماليك وقربهم منهُ وولاهم الإدارات فاستفحل أمرهم وقويت شوكتهم وسطع نجمعهم وأيدهم السلاح الذى بين أيديهم فنالوا المناصب العالية وأصبح الحل والربط منوطًا بهم فاحتقروا آخر ملوك الأمويين وخلعوه واستبد بالملك أيبك الجاشنكير أول ملوك المماليك البحرية الذين لقبوا بهذا اللقب لأن مقرهم كان فى جزيرة النيل عند نقطة سميت بالبحر لاتساعها تمييزًا لهم عن المماليك الجراكسة.

٦٢ - قطز الملك المظفر

ولى السلطان قطز الملك سنة ٦٥٧هـ وهو الثالث من ملوك المماليك البحرية ولم يدم سلطانه سوى أحد عشر شهرًا لأن هولاكو زحف بحموع كالجراد فدخل بغداد (دار السلام) وقضى على حضارتها ومدنيتها الباهرة وإنا نسطر هذه الفاجعة الأليمة المحزنة فنقول: كان هولاكو تتريًا من أحفاد جنكيز خان وله حكومة قوية فاستدعاه مؤيد الدين العلقمى وزير المستعصم لفتح بغداد فلباه وهاجم البلاد العربية وكان لا يأتى إلى بلد أو مدينة إلا وفتك بأهلها فتكًا ذريعًا فلا يترك رجلاً ولا امرأة ولا طفلاً ولا شيخًا إلا قتله فوصل بغداد وحصرها وضيق عليها فخرج الوزير مؤيد الدين بن العلقمى (مسبب هذه النقمة) إليه وتوثق منهُ لنفسهِ وعاد إلى الخليفة المستعصم وقال له: إن هولاكو سيبقيك فى الخلافة كما فعل بسلطان الروم فى (الأناضول) ويريدان يزوج ابنته من ابنك أبى بكر وحسن له استقباله فخرج المستعصم فى جمع من أكابر أصحابه ونزل فى خيمة ثم استدعى الوزير الفقهاء والأماثل فاجتمع هناك جميع سادات بغداد والمدرسون وظلوا

يخرجون إلى التتر طائفة بعد طائفة حتى تكاملوا وكان منهم محيى الدين ابن الجوزى وأولاده فأمر بقتلهم جميعًا ثم مدوا الجسر ودخلوا بغداد وأعملوا السيف فى أهلها وهجموا عَلَى دار الخلافة وقتلوا من كان فيها من الأشراف ولم يسلم إلا الصغار ودام القتل والنهب نحو أربعين يومًا وقتل الخليفة ولم يعرف طريقة اغتياله ثم نودى بالأمان.

هكذا ختمت الخلافة العباسية البغدادية التى أجلَّها واحترمها وهابها السلاطين والملوك فداسها هؤلاء البرابرة بأرجلهم القذرة سنة ١٢٥٧م و ٦٥٦هـ بعد أن عمرت خمسة قرون ونيفًا وتركت من المآثر الجليلة ما برزت بها عَلَى الأولين وبذت السابقين.

انقضت هذه الصاعقة أو الفاجعة بل الطامة على العرب فذعروا واستسلموا وتمرد هولاكو فاستولى عَلَى العراق وتقدم غربًا وجنوبًا إلى سورية ففر الملك الناصر من دمشق بأولاده ونسائه وأتباعه ونفائس ذخائره إلى بركة الكرك (زيزًا) فجاء نائب هولاكو القائد كتبغا وتسلم دمشق بأمان ثم بحث عن الناصر حتى عرف مقره فأمسكه وبعث به إلى هولاكو فقتله وانقرضت به الدولة الأيوبية الدمشقية ثم زحف التتر إلى عجلون وفلسطين وقدموا غزة وامتلكوها فالتقاهم الملك قطز وصحبته المنصور صاحب حماة والتحم الجيشان فى الغور عَلَى عين جالوت بين بيسان وجنين فكانت موقعة كبرى قتل فيها كتبغا وأسر ابنه ثم قتل وتأثر فلولهم بيبرس وما زال يفتك بهم حتى أخرجهم من البلاد ورجع فقتل الملك المظفر قطز واستوى على العرش.

٦٣ - الملك الظاهر بيبرس البندقدارى

لا ريب أن السلطان بيبرس هو أعظم المماليك وأشدهم بأسًا فإنه حكم فلسطين وحارب ما بقى فيها من الصليبيين وانتزع منهم الشوبك والكرك وفتح قيسارية وأرسوف وصفد وذبح أهلها وفتح يافا واهتم بالأماكن المقدسة ورمم قبة الصخرة وزاد فى أوقاف الحرمين الشريفين الأقصى والخليل وفى سنة ٦٦٨هـ سنة

١٢٦٩م عمَّر مسجد النبى موسى وزاد فيه ورتب موسمه وحسنه وقاوم التتر وصد هجماتهم عن سورية وفلسطين.

٦٤ - انتقال الخلافة العباسية إلى مصر

ومن الأعمال الجليلة التى قام بها الملك بيبرس نقله الخلافة العباسية من العراق إلى مصر فإنه لما استأصل هولاكو شأفة الأسرة العباسية المالكة فى بغداد ذهب إلى مصر رجل بغدادى أسمر اللون اسمه الإمام أحمد وادَّعى أنهُ عباسى فقبله بيبرس لغرض سياسى ودعا إليه القضاة فى مصر فأثبت نسبه أمامهم وبايعوه بالخلافة ولقبوه المستنصر وكانت العامة تلقبهُ بالزراتينى ثم أرسله إلى بغداد فقتله التتر قبل وصوله. ومات الملك الظاهر بيبرس فى دمشق ودفن بالقرب من الجامع الأموى.

بدأ شأن الخلافة فى الضعف مذ عهد الراضى سنة ٣٢٢هـ الموافق سنة ٩٣٤م عند ما فصلت عنها السلطة الزمنية واستبد الملوك والأمراء وأصبح الخلفاء شيوخ زاوية يتبرك بهم بل هدفًا للسجن والقتل فجاءهم هولاكو وأبادهم وثل عروشهم فنقلوا إلى مصر وزادوا ضعفًا فوق ضعفهم حتى بلغ من الملك الناصر أن نفى الخليفة المستكفى إلى قرية قوص ومن ملوك هذه الدولة السلطان الملك المنصور قلاوون الذى فتح طرابلس الشام واستردها من الفرنج بعد أن مكثت فى أيديهم ١٨٥ سنة ثم خلفه ولده السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل الذى هدم قبور خلفاء الفاطميين فى مصر وبنى مكانها خانًا دعاه الخان الخليلى بقرب مشهد الحسين وفتح عكا وقتل أهلها وخرَّبها وتسلم عثليت وفى عصره سنة ٦٩٠هـ خلت سورية وفلسطين من الفرنج.

٦٥ - محمد بن قلاوون

ولى الملك الناصر محمد بن قلاوون بعد أن خلع مرتين وعمر فى القدس المساجد وأنشأ المآذن وصد هجمات ملك التتر قازان الذى أوغل فى البلاد وتجاوز حدود فلسطين فوجس الناصر وجهز سلار وبيبرس الجاشنكير بجيش لمحاربتهم فأجهزوا عليهم وردوهم عَلَى أعقابهم منقلبين.

ولا حاجة للإفاضة فى هذا المختصر عن سيرة كل ملك من المماليك البحرية لأنه لم يحدث بفلسطين شىء جدير بالذكر غير خلع الملك هذا وتعيين ذاك مما لا يهم القراء معرفته.

٦٦ - المماليك الجراكسة أو دولة المماليك الثانية

كانت منازلهم فى سيبيريا حول بحيرة بيكال فهجروها واستطونوا بلاد الجركس وقفقاسية وما وراءها فاستقدمهم الملوك والأمراء واصطفوهم واستكثر منهم العباسيون وبنو أيوب والمماليك البحرية فقضوا عَلَى سلطتهم بأسلوبهم العجيب وهو تنصيب الأحداث والضعفاء من أبناء الملوك عَلَى سدة السلطنة لسهولة نزعها منهم ثم يكفله أحدهم ويدير شؤون المملكة فيستبد بالسلطان ويتربص له ويخلعهُ وأول ملوك المماليك الجراكسة.

٦٧ - أبو سعيد برقوق (الظاهر)

هو أحد موالى بنى قلاوون النابهين ساعده جده فبرز عَلَى أقرانه ونال حظوة عند أسياده فأغدقوا عليه نعمهم وأحلوه صدر مناصبهم وأعلاها فجنحت نفسه للعرش ونهج منهج أسلافه المماليك فاختار حاجى الصغير ابن السلطان شعبان وكفله وناب عنهُ فى المملكة وما زال به حتى خلعه واستوى عَلَى عرشه فانتقض عليه الأمراء وبعد عراك شديد تغلب عليهم وشردهم فالتجأ أحدهم منطاش إلى آل الفضل عرب الأمير محمود الفاعور واحتمى بهم فدافعوا عنهُ وحاربوا معهُ وأخيرًا أخذوا له الأمان وسلموه فخاس برقوق بعهده وفتك به فصفا له الجو وقرتّ عينه بالملك. وفى سنة ٧٩٦هـ كان ناظر الحرمين الشريفين ونائب السلطنة بالقدس شهاب الدين الأمير أحمد بن اليغمورى (وله أسرة فى الخليل والشام) فأبطل المظالم والمكوس التى عملها سواه ولما زار الناصر فرج بن برقوق القدس رأى عَلَى نيابتها ونظارة الحرمين حاكمًا واحدًا فلم يستحسن ذلك وجعل لكل منهما مأمورًا خاصًا فتعين الأمير ناصر الدين النشاشيبى ناظرًا للحرمين فقط وأسرته فى القدس كبيرة ومشهورة.

٦٨ - مجيء التتر

اشتهر من التتر ثلاثة ملوك عظام الأول جنكيز خان مؤسس الدولة والثانى هولاكو مبيد مجد العرب وطافىء سراج مدينتهم ومحرق مكتباتهم ومدارسهم فى بغداد والثالث تيمورلنك ملك سمرقند الذى اجتاح البلاد وفتح خراسان وتركستان والهند وفارس واخترق الأناضول وأسر السلطان العثمانى بايزيد ثم انقلب إلى سورية سنة ٨٠٣هـ فأمر فرج بن برقوق سائر النواب بالتوجه إلى حلب ليمنعوها منهُ ففعلوا ولكنهم عجزوا عن رده وصد غاراته فحاربهم وانتصر عليهم وفتح حلب وأمعن فى النهب والفتك وسفك الدماء البريئة وسار إلى الشام فامتلكها وأحرقها ونكل بأهلها وأحرق الجامع الأموى وفتك بالأهالى وعاث فى الأرض فسادا.

ولما ولى السلطان الملك الظاهر خشقدم عمر قناة السبيل وأجرى بها ماء العروب إلى القدس ومن ملوك هذه الدولة السلطان قايتباى الذى عمر كثيرًا وطالت سلطنتهُ وقد حدث فى عهده وقائع عمومية نذكر بعضها باختصار فمنها:

أنهُ فى سنة ٨٧٨هـ نشبت فتنة فى الخليل بين الأكراد (الحموريين) وبين الدارية (التميمية) المنشعب منهم سكان قريتى النبى صالح ودير نظام وتميمبو نابلس فقتل من الفريقين ثمانية عشر رجلاً. ومنها الفتنة التى حدثت بسبب كنيسة اليهود وتشدد متعصبو المسلمين إلى أن تفاقم الخطب. وفى سنة ٨٨٠هـ خيم السلطان عَلَى بركة الجاموس قرب الرملة فسرق له اللصوص «بقجة» قماش من الخيمة التى كان نائمًا فيها فاستدعى شيخ بنى صعب حرب الجيوسى وحبسهُ ثم غرمهُ مالاً.

ومما يدل عَلَى ضعف الحكومة وقتئذ أن حاكم القدس قتل جماعة من بنى زيد فهجم عصبتهم وأعوانهم ونهبوا المدينة ودخلوا المسجد شاهرى السلاح وهرب من وجههم الحاكم فتمردوا وكسروا باب السجن وأخرجوا منهُ المساجين.

وسنة ٨٨٨هـ اختلف السلطان قايتباى والسلطان بايزيد العثمانى فجمعوا من فلسطين الجنود (تجريدة) وصرفوا لهم المعاشات فأخذوها ونكلوا عن الحرب.

وفى سنة ٨٩٤هـ حضر أبو العويس أمير عرب الجرامنة (جد العويسات فى بيراماعين والبرج) وطرح مظلمة على الفلاحين فعارضهُ نجم الدين بن جماعة (من أجداد دار الخطيب) واسترحم من الدوادار[٥] أن يمنعهُ قلبى طلبه.

وفى ١٩ ربيع الأول سنة ٨٩١هـ الموافق ٧ كانون أول تساقط الثلج فى القدس من يوم الثلاثاء حتى يوم الخميس فتراكم كثيرًا مثل ثلجة سنة ١٩١٩م وفى هذه السنة حدث خلاف بين حاكم غزة وحاكم القدس وتداخل بينهما السلطان وأصلح ذات البين وظلت البلاد فى انحطاط حتى التهمها الأتراك العثمانيون.

(٥) هو الدمدار (قائد المؤخرة) والبيشدار (قائد الطليعة).

obeikandl.com